يعني بما جاءهم الحق من عند ربهم كذبوا به فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون يعني فسوف يأتيهم أخبار استهزائهم إذا عذبوا
في الآخرة قوله ألم يروا الخطاب لكفار مكة يعني ألم ير هؤلاء المكذبين بآياتي كم أهلكنا من قبلهم من قرن يعني مثل قوم
نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم الماضية والقرون الخالية والقرن الأمة من الناس وأهل كل زمان قرن سموا بذلك
لاقترانهم في الوجود في ذلك الزمان وقيل سمي قرنا لأنه زمان بعد زمان وأمة بعد أمة واختلفوا في مقدار القرن فقيل
ثمانون سنة وقيل مائة وعشرون سنة وقيل أربعون سنة وقيل ثلاثون سنة وقيل مائة وعشرون سنة
وقيل مائة سنة وهو الأصح لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن بسر المازني إنك تعيش قرنا فعاش
مائة سنة فعلى هذا القول المراد بالقرن أهله الذين وجدوا فيه ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم خير القرون
قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم يعني الصحابة والتابعين وتابعي التابعين مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم يعني أعطيناهم
ما لم نعطكم يا أهل مكة وقيل أمددناهم في العمر والبسطة في الأجسام والسعة في الأرزاق مثل إعطاء قوم نوح وعاد
وثمود وغيرهم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا مفعالا من الدر يعني وأرسلنا المطر متتابعا في أوقات الحاجة إليه
والمراد بالسماء المطر سمي بذلك لنزوله منها وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم يعني وفجرنا لهم العيون تجري من تحتهم والمراد منه
كثرة البساتين فأهلكناهم بذنوبهم يعني بسبب ذنوبهم وكفرهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين يعني وخلقنا من بعد
هلاك أولئك القرون أهل قرن آخرين وفي هذه الآية ما يوجب الاعتبار والموعظة بحال من مضى من الأمم السابقة
والقرون الخالية فإنهم مع ما كانوا فيه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع أهلكناهم لما كفروا وطغوا وظلموا
فكيف حال من هو أضعف منهم وأقل عددا وعددا وهذا يوجب الاعتبار والانتباه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة
قوله عز وجل ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس الآية قال الكلبي ومقاتل نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد قالوا يا محمد
لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله
فأنزل الله تعالى هذه الآية ولو نزلنا عليك كتابا في يعني قرطاس من عندي يعني مكتوبا في قرطاس وهو الكاغد
والصحيفة التي يكتب فيها فلمسوه بأيديهم يعني فعاينوه ومسوه بأيديهم وإنما ذكر اللمس ولم يذكر المعاينة لأنه أبلغ
من إيقاع العلم بالشيء من الرؤية لأن المرئيات قد تدخلها التخيلات كالسحر ونحوه بخلاف الملموس لقال الذين كفروا
إن هذا إلا سحر مبين يعني لو نزلت عليهم كتابا كما سألوا لما آمنوا به ولقالوا هذا سحر مبين كما قالوا في انشقاق
القمر وأنه لا ينفع معهم شيء لما سبق فيهم من علمي بهم وقالوا يعني مشركي مكة لولا يعني هلا أنزل عليه يعني على محمد
ملك يعني نراه عيانا ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر يعني لفرغ من الأمر ولوجب العذاب وهذه سنة الله في الكفار أنهم
متى اقترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستوصلوا به ثم لا ينظرون يعني ثم إنهم لا يمهلون ولا يؤخرون
طرفة عين بل يعجل لهم العذاب ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا يعني ولو أرسلنا إليهم ملكا لجعلناه في صورة رجل وذلك
أن البشر لا يستطيع أن ينظر إلى الملائكة في صورهم التي خلقوا عليها ولو نظر إلى الملك ناظر لصعق عند رؤيته ولذلك
كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنس كما جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وكما جاء
الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين وكذلك أتت الملائكة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام ولما رأى النبي
صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته التي خلق عليها صعق لذلك وغشي عليه وقوله تعالى وللبسنا عليهم ما يلبسون
يقال لبست الأمر على القوم إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلا ولبست عليه الأمر إذا خلطته عليه حتى لا يعرف
جهته ومعنى الآية ولخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أم آدمي وقيل في معنى الآية
إنا إذا جعلنا الملك في صورة البشر ليظنوه بشرا فتعود المسألة بحالها أنا لا نرضى برسالة البشر ولو فعل الله عز
وجل ذلك صار فعل الله مثل فعلهم في التلبيس وإنما كان تلبيسا لأنهم يظنون أنه ملك وليس بملك أو يظنون أنه بشر

وليس

٢٥٨

وليس هو بشر وإنما كان فعلهم تلبيسا لأنهم لبسوا على ضعفتهم في أمر النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إنما هو بشر مثلكم ولو رأوا
الملك رجلا للحقهم من اللبس مثل ما لحق بضعفائهم فيكون اللبس نقمة من الله وعقوبة لهم على ما كان منهم من التخليط في السؤال
واللبس على الضعفاء قوله عز وجل ولقد استهزئ برسل من قبلك يعني كما استهزءوا بك يا محمد وفي هذه الآية تعزية للنبي صلى
الله عليه وسلم وتسلية له عما كان من تكذيب المشركين إياه واستهزائهم به إذ جعل له أسوة في ذلك بالأنبياء الذين كانوا
قبله فحاق أي فنزل وقيل أحاط وقيل حل بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون والمعنى فنزل العذاب بهم ووجب
عليهم من النقمة والعذاب جزاء استهزائهم وفي هذه الآية تحذير للمشركين الذين فعلوا بنبيهم كما فعل من كان قبلهم
بأنبيائهم فينزل بهم مثل ما نزل بهم قل سيروا في الأرض أي قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين سيروا في الأرض معتبرين
ومتفكرين وقيل هو سير الأقدام ثم انظروا فعلى القول الأول يكون النظر نظر فكرة وعبرة وهو بالبصيرة لا بالبصر
وعلى القول الثاني يكون المراد بالنظر نظر العين والمعنى ثم انظروا بأعينكم إلى آثار الأمم الخالية والقرون السالفة وهو قوله
تعالى كيف كان عاقبة المكذبين يعني كيف كان جزاء المكذبين وكيف أرغم الكفر والتكذيب أهله وهلاكهم تحذير لكفار
مكة عذاب الأمم الخالية قوله عز وجل قل لمن ما في السموات والأرض قل لله هذا سؤال وجواب والمعنى قل يا محمد لهؤلاء المكذبين
العادلين بربهم لمن ملك ما في السموات والأرض فإن أجابوك وإلا فأخبرهم أن ذلك لله الذي قهر كل شيء وملك كل شيء واستعبد
كل شيء لا للأصنام التي تعبدونها أنتم فإنها أموات لا تملك شيئا ولا تملك لأنفسها ضرا ولا نفعا وإنما أمره بالجواب عقب السؤال
ليكون أبلغ في التأكيد وآكد في الحجة ولما بين الله تعالى كمال قدرته وتصرفه في سائر مخلوقاته أردفه بكمال رحمته وإحسانه
إليهم فقال تعالى كتب على نفسه الرحمة يعني أنه تعالى وجب وقضى على نفسه الرحمة وهذا استعطاف منه للمتولين
عنه إلى الإقبال عليه وإخبار بأنه رحيم بعباده وأنه لا يعجل بل يقبل التوبة والإنابة ممن تاب وأناب ق عن أبي هريرة
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى الله الخلق ولمسلم لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش
إن رحمتي تغلب غضبي وفي رواية للبخاري إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي فهو مكتوب
عنده فوق العرش وفي رواية لهما إن الله لما خلق الخلق وعند مسلم لما قضى الله الخلق كتب في كتاب كتبه على نفسه فهو موضوع
عنده زاد البخاري على العرش ثم اتفقا إن رحمتي تغلب غضبي ق عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل في الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق
حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه زاد البخاري في رواية له ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من
الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من العذاب ولمسلم إن لله مائة رحمة أنزل منها
رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها
وأخر الله تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة م عن سلمان الفارسي قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض فجعل منها
في الأرض رحمة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها
بهذه الرحمة ق عن عمر قال قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلب ثديها
إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألصقته ببطنها فأرضعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أترون
هذه المرأة طارحة ولدها في النار وهي تقدر أن لا تطرحه فقلنا لا والله فقال لله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها
وقوله تعالى ليجمعنكم لام القسم تقديره والله ليجمعنكم إلى يوم القيامة يعني في يوم القيامة وقيل معناه في قبوركم إلى
يوم القيامة لا ريب فيه أي لا شك فيه أنه آت الذين خسروا أنفسهم يعني بالشرك بالله وبقوا أنفسهم وغبنوها
باتخاذ الأصنام فعرضوا أنفسهم لسخط الله وأليم عقابه فكانوا كمن خسر شيئا وأصل الخسار الغبن يقال خسر الرجل

Copyright © King Saud University